

القرن العاشر الهجري

١ - مذاهب أربعة

في القرون الأولى، وفي بداية المدنية الإنسانية الحديثة، قامت مذاهب أربعة. ثلاثة منها كانت على باطل، ومذهب واحد كان على صواب، ولا جرم أن ثلاثة المذاهب الأولى، كان لها الأثر الأول في دفع الفكر الإنساني بطابع معين، فقد بنشوء الافكار الحرة قروناً طويلاً.

أما المذاهب الثلاثة الأولى وهي المذاهب الباطلة فهي:

أولاً - المذهب الجيوسنتري، Jeocentric وهو المذهب الذي كان يعتقد أهله بنظام عالمي تستقر الأرض في وسطه. فكان المعتقد أن الأرض في وسط النظام الكوني، وأن كل السيارات ومعها الشمس إنما يدورن من حولها؛ وأن الأرض ليست محور نظام جزئي، بل هي مركز النظام في مجموعه بما فيه المجرات العظيمة والندام الكبيرة كندام الجبار والمرأة المسلسلة وغيرهما، على خروج هذه النظم عن حدود نظامنا هذا بما لا يقدر إلا بآلاف السنين النورية.

ثانياً - المذهب الإيجوسنتري، Egocentric وهو المذهب الذي كان يعتقد أهله بأن النفس الإنسانية أو الذات البشرية هي المرجع والمآل من خلق العالم، وأن الإنسان كائن مختار من الله وأنه أفضل جميع المخلوقات بأنواعها من جماد ونبات وحيوان، وأن تكوينه أشرف التكوين، وأن روحه مستمدة من روح الله وأنه مصنوع على هيئة الله.

ثالثاً - المذهب الثيوسنتري، Theocentric وهو المذهب الذي كان يعتقد أهله أن اللاهوت أساس العلم الإنساني، وأن تفسير كل مافي انكون من الاسرار يجب أن لا يتعدى حدود التفسير التي فسر بها أقطاب الكنيسة الكتب المقدسة، وعلى رأسهم البابا المعصوم عن كل خطأ المبرأ عن كل زلل. ظل الله فوق الأرض، ووكيل الله في تصريف -الآلات العالم الإنساني.

وهذه المذاهب الثلاثة باطلة. فالمذهب الأول أبطله غاليليو العظيم باستكشافه أن

الأرض تدور من حول الشمس ، وأن النظام الشمسي من أضال النظم الفلكية التي يحتويها الكون اللامتناهي . والمذهب الثاني أبطله العلم التشوي ، إذ أظهر العلماء أن الانسان حيوان ارتقى على مدى الازمان ، ومنهم من يشرفه فيجعله من سلالة صورة من صور البريمات افترضت ، وأنها تمت بأقرب الصلة الى القردة العليا ، ومنهم من يرده إلى حيوان أدنى من ذلك ، أي إلى « الترسيوس » - Tarsier كما يقول العلامة « أوزبورن » . والمذهب الثالث نقضه العلم الاستقرائي الحديث ، بعد أن ظهر للناس أن الحياة آية أرضية وأن العمل والانتاج والسعي وراء الرزق أول ما يجب أن ينصرف له الانسان ، وأن الحضارة لن تقوم على المذاهب اللاهوتية - الثيولوجية - الخلافة ، وإنما تقوم على حرية الفكر والقدرية على الاختراع ، وامكن استخدام القوى الطبيعية لفائدة الانسان

أما المذهب الصحيح فهو :

رابعا - المذهب « الهليوسنتري » - Heliocentric - وهو المذهب الذي نقض به غاليليو المذهب « الجيوسنتري » ، إذ أثبت أن الشمس مركز النظام الشمسي وأن النظام الشمسي واحد من ملايين النظم التي يتكون منها الكون الاوسع .

٢ - شكوك أربعة

بعد أن نقضت المذاهب الثلاثة الاولى ، وثبت المذهب الرابع على أساس علمي لا يأتيه الباطل من حيث سلك اليه ، استبان للعلماء والمشتغلين بعلم الفلك منهم على الاخص ، انه يكاد يكون من المستحيل ، واذا نساموا قالوا إنه يكاد يكون من المستعذر ، ان يبلغ الفكر الانساني المحدود الى فتح مغالب الكون والوقوف على أسرار ه . فان وحدة هذا الكون قد تبلغ من الانساع والعظمة مبلغا لا يمكن لعقل تصوره . وقد تبلغ تراصيه العنصرية من التشابك والاختلاف مبلغا يتعذر على التجارب اكتناه ما فيها من الاسرار والحقائق . بجانب هذه الحقيقة الاحتمالية حقيقة أخرى جلية واضحة . هي أننا تقدمنا عليها على أهل القرون الاولى ، من الناحيتين النظرية والعلمية . ولقد غرى الشك نواح من الفكر الانساني كان يظن في القرون الوسطى أن كلمة الفصل فيها قد قالها أهل اللاهوت وأساطين الكنيسة . أما هذا الشك فمعد تمحيز في أربع صور رئيسية تفرعت منها شجرة الشك الكبرى التي نرى ثمارها اليوم عالقة بفروع كل نبتة من نبات المعرفة الحديثة .

الشك الأول

تناول خلق العالم إذ كان التصور أن الدنيا صيدت كما تصاد سمكة من بحر الماء ، وإن الذى اصطادها طائر أو حيوان من الحيوانات القارضة . وهنا لك تصور شعري آخر تعتقد به قبائل الماورى ، محصله أن الأرض والسماء كانتا عروسين ، ثم افترقتا إلى الأبد بفعل قوة كانت متأصلة فيهما ، وأنهما حتى الآن يتحسران على هذا الفراق ويرسلان الدعم في صورة ندى الليل وحباب الصباح (١) وهذه الأشياء جذيرة بالعقل الانسانى في بدايته وفي غرارته الأولى . فلما ارتقى الفكر وغزاه الشك واتسعت المعارف ، لم يصبح بنا من حاجة لأن نفكر في الكون على أساس هذه الخيالات .

الشك الثانى

تناول الفكرة في إله مضى يصارع المادة ، العاصية ، محاولاً أن يرد « الماء » Chaos إلى نظام . ويرجع تاريخ هذه الفكرة إلى تلك الأزمان التى جهد الإنسان فيها لكي يخضع ، الأرض ، لحاجاته وضروراته . أما الشك فقد غزى العقل في هذه المسألة من ناحية أن المادة ليست ، عاصية ، بل هى تحتاج إلى علاج . وأنها ليست في عواء ، بل هى سداها النظام . لهذا تبادل إلى العقل أن ، إلها ، لا يستطيع أن يعالج ، مثل هذا الأشكال البسيط ، لا يمكن أن يكون إلها على إطلاق القول .

الشك الثالث

تناول للفكرة في أن الكون إنما خلق من أجل الإنسان وحده ومن أجل منفعته المطلقة . ففى ذلك الزمان الذى اعتقد فيه الإنسان أن كل النظام الكونى هو عبارة عن هذه الأرض ، المسطوحة ، وأن السماء ليست سوى وعاء مقلوباً من فوقها ، وإن الكواكب عبارة عن ، ثقوب ، يطل منها الله على أهل الأرض أثناء الليل ، كان من الضروري أن يعتقد الإنسان ، وهو النوع الغالب فوق الأرض ، إن هذا النظام لم يخلق إلا من أجله . أما بعد أن تراجعت الأرض الى الوراء وأصبحت في نظام الكون أشبه بذرة ميكروسكوبية بجانب جبال التخلايا العظيمة ، وأنها سيار صغير جهد الصغر من ضمن سيارات أخرى تدور من حول الشمس ، بدأ الإنسان يحقق قيمته الصحيحة بازاء الكون

(١) أن السموات والأرض : كانتا متفتتا

الشك الرابع

تناول الفكرة في أن خطيئة الانسان الاولى كانت سيئاً في تعديل يتناول اساس النظام الاصلى كما تجب في فكر الله ، وأن ، خلاصه ، لا يزال شغل الله الشاغل . على أن هذه الفكرة لدليل قوى على ضعف الارادة الانسانية . فإذا كان لها من فائدة لنا فهي هذه ، أما من الناحية الاخرى ، فانها تظهر لنا ان صانع الكون ، إله ، يناقض نفسه ، في حين انها نبالغ في قيمة الانسان وموضعه من نظام الاشياء .

٣ - عصر الايمان

إذا وعيت هذه المذاهب الاربعة وهذه الشكوك الاربعة ، وقارنت بينها ، استطعت على وجه التقريب ان تتصور شيئاً من حقيقة الفكرة التي قامت في عقول الناس خلال القرون الوسطى ، تلك الفكرة التي لم ينقذ الناس من ظلماتها الاحداث بسيط بشكر كل يوم ، هو يزوغ شمس اليوم الاول من شهر يناير سنة ١٠٠١ من التاريخ الميلادى . فقد شاع الاعتقاد في ذلك الزمان ان القرن العاشر الميلادى هو آخر الدنيا وأن الساعة سوف تقوم في نهاية اليوم الاخير من شهر ديسمبر سنة الف من الميلاد ، وأنه في ذلك اليوم سوف يعود عيسى ، من السماء الى الارض ، ليحكم بين الناس ، الاموات منهم والاحياء ، ويقرر مصيرهم . ولقد قوى هذا الاعتقاد وزاد في النفوس ثباتاً بما كان يحدث من القحط الشديد وانتشار الاوبئة التي كان يتكرر حدوثها بين آن وآن ، والتي كان يزعم أهل اللاهوت انها نذر تنذر الناس باقتراب الساعة وفناء العالم ولقد هبت على العالم النصرانى ، وعلى الاخص في أوروبا ، عاصفة من الخبال اللاهوتى أو الجنون الدينى ، اكتسحتها وامتدت الى كل ارجائها . ولقد تدفقت سيول المهاجرين الى كل الاماكن المقدسة التي كانت منتشرة في انحاء العالم النصرانى ، فتفتشت فيهم الامراض وأنقلتهم المتاعب ، فكان منهم من يموت في الطريق ومنهم من يصل الى مقصده متعباً منهوكة جسم وعقلاً ، مريض النفس خائر القوى ، بل كثيراً من مات منهم تحت الاقدام على ابواب الاماكن المقدسة وقد تزاخمت عليها زمر المسوقين اليها بدافع المعتقد الباطل

وكنت ترى هنا وهناك جموعاً تعرت من ثيابها وركعت صفوفاً على جانبي الطرق ليربهم حملة السياط ، يضربونهم بسيياط من الجلد المعقد تخطر من دماهم ، مرددين بصوات عالية كلماتهم المعروفة : اقتربت الساعة Dies irae: dies irae

٤ - الليلة الاخيرة

ولاجرم أن العالم النصراني في ذلك الحين كان مغموراً في ذلك الشعور العميق ، شعور اقتراب الساعة وموقف الحساب الاخير ، يوم تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وظل الناس ينتظرون زلزلة الساعة و إن زلزلة الساعة شئ عظيم .

واقتربت الساعة عند منتصف الليل من اليوم الاخير من شهر ديسمبر سنة الف بعد الميلاد . فاذا النسمات تهب بليلة عليلية ، واذا السماء ترسل أضواءها الخالدة ، واذا السيارات تسبح في أفلاكها ، واذا الساعة تمر على الارض كما مرت من قبل منذ ملايين كثيرة من السنين . ثم تمر الساعة المنتظرة فلا زلزلة ولا اضطراب . وتمر الساعات متتالية ، واذا الفجر يطلع وإذا الصبح يتنفس واذا الشمس تشرق كما أشرقت على الارض منذ أن مر بجوارها ذلك النجم الضال الكبير الذي يتخيله السير ، جيز ، ماراً خارج فلك ، بنون ، واليوم بالضرورة خارج فلك ، إيكاروس ، فاجتذب من سديم الشمس ذراعاً ، امتد اليه وأخذ يدور من حول الشمس ثم تكاثف حول مركز معينة فكانت السيارات ، ثم اختفى ، النجم الضال ، في أغوار الفضاء السحيقة ، قبل أن يجتذب اليه بقية ما امتد اليه من ذراع ، الشمس السديمية .

وشعر الناس بحقائق الحياة . شعروا بالجوع والعطش ، فأكلوا وشربوا ، وشعروا بالتعب فناموا ، وشعروا بضرورة السعى من أجل الحياة فسعوا في منابها . هذا الحد الفاصل كان نهاية الفكرة اللاهوتية لاسبى أخبت صورها الخيالية وأول عهد الانسان باستيقاظ الفكر من خمول القرون الاولى ، منذ ظهور أول رسول من رسل النصرانية في الغرب .